جمال المرأة

فى الشـــعر الجاهلى

لمحمد عبد الرزاق حميده

المدرس بكلية دار العلوم

كان الشعر ديوان العرب فى القديم ، سجلوا فيه حياتهم ، ووصفوا فيه بيئتهم ، ودونوا مفاخرهم ، واستودعوه حكمتهم وتجاربهم ، وائتمنوه على على تاريخهم ، وخلدوا فيه مظاهر شعورهم وعواطفهم ، وخلفوا فيه أوضح البراهين على أذواقهم وإحساسهم .

وإذا قلبت صفحات هذا الديوان تبحث فيه عن مكانة المرأة ، وحظها من العناية ، وجدتها قد ظفرت من صفحاته بحظ عظيم ، فخلدت مكانتها فيه ، شاعرة أحيانا ، وملهمة فى أكثر الأحايين .

وقد تحدث هذا الشعر عنها كثيرا ، ومدح جمالها بصفات يكاد يجمع عليها كل شاعر ، ولم يعتمد أولئك الشعراء فى الإعجاب بجمالها على أصول علم الجمال ومقاييسه ، ولا رجعوا إلى دراسات علمية ، ولا أصول فنية ؛ ولم يقيدوا أنفسهم بمقاييس حرفيـــة تحدد أبعاد الأجسام فى الطول والعرض والاستدارة بالذراع والمتر ، بل اعتمدوا على فطرتهم الخالصة ، وذوقهم السليم ، وإحساسهم الدقيق ، فاهتدوا إلى تلك الصفات التى لاتوزن بموازين الجمال الحديثة إلا كان أمرها عجيبا . فكيف اهتدى أولئك القوم ، منذ أكثر من الف وخمسمائة سنة ، إلى هذه الصفات البارعة ، وهم بادون فى الصحراء ؟

وأهم ما يلفت النظر فى الشعر العربى القديم ، أن نظرة هؤلاء الشعراء إلى الجمال كانت نظرة مادية حسية صرفة ، فقد عنوا بالجمال المادى الجسدى ، وتتبعوه من قمة الرأس إلى القدم ، ووصفوه جملة وتفصيلا ؛ وما زال وصفهم له فتنة للنواظر ، ومشغلة للقلوب .

وقد أعجبهم الشعر الطويل الغزير ، الأسود الفاحم ، المشرف على جبين كالقمر ، ليكون فى اجتماع اللونين مايزيدهما جمالا وإغراء :

قال امرؤ القيس فى وصف الشعر :

وفرع يغطى المتن أسود فاحم أثيث (١) . . . . . .

وقال المرار بن المنقذ العبدى

راقه منها بياض ناصع يونق العين (٢) ، وفرع مسبكر (٣)

وقال الأعشى يصف الجبين الوضاء ، والشعر الطويل ، والخد الأسيل ،

غراء ، فرعاء ، مصقول عوارضها

وتحدث غير الأعشى كثير من شعرائهم ، فى مدح الخد بالملاسة ، والعين بالفتور ، وشبهوا النظرة الفاتنة ، العاطفة ، الرقيقة ، بنظرة الظبية إلى أطفالها قال امرؤ القيس .

تصد وتبدى عن أسيل ، وتتقى بناظرة من وحش وجرة مطفل

وأعجبهم العيناء الحوراء ، وفتنهم طول الأهداب فسموه « الوطف » وفضلوا الكحل على التكحل ، إذ الأول من صنع الله ، والثانى من صنع أيديهم :

قال سويد بن أبى كاهل اليشكرى :

تمنح المرآة وجها واضحا مثل قرن الشمس فى الصحو ارتفع

صافى اللون ، وطرفا ساجيا أكحل العينين مافيه قمع (٤)

(١) غزير

(٢) يعجب النظر

(٣) شعر مرسل

(٤) القمع : العيب فى العين

أما حلاوة الفم فرأوها فى سمرة الشفتين . وبياض الأسنان وحلاوة الريق . وسحر الابتسام . قال المرار

وإذا تضحك أبدى ضحكها أقحوانا قيدته ذا أشر
لو تطعمت به شبهته علا شيب به ثلج خصر [1]

وقال طرفة بن العبد .

وتبسم عن ألمى كان منوراً تخلل حر الرمل دعص له ندى

فهى إذا افتر ثغرها الأسمر الشفتين ،بدت أسنانها كأنها أقحوان منور ولم ينسوا أن جمال الوجه فى إشرافه ولمعانه ، فشبهوه بالشمس فى الضحى كما رأينا فى بيت سويد اليشكرى . وكما قال النابغة يشبهه بسنا البرق ، وضوء النار :

ألمحة من سنا برق رأى بصرى أم وجه نعم بدالى أم سنا نار ؟

وقال طرفة

ووجه كأن الشمس ألقت رداءها عليه نقى اللون لم يتحدد

وقد شاع عندهم الاعجاب بالجيد الطويل ، وشبهوه بجيد الغزال وكنوا عن هذا بأنها بعيدة مهوى القرط . قال امرؤ القيس :

وجيد كجيد الرئم ليس بفاحش إذا هى نصته ولا بمعطل

أما الصدر فيكون جميلا فتانا . إذا كان ممتلئا قد اختفت عظامه وانصقل سطحه : قال امرؤ القيس :

مهفهفة بيضاء غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل [2]

وجمال الثدى فى نهوده واشرافه ، كأنما يطل على البطن من عل كما قال المرار :

صلته الخد [3] ، طويل جيدها ناهد الثدى ولما ينكسر

(١) شديد البروده
(٢) المرآة
(٣) ماء الخد

وقالى عمر بن كلثوم :

وثديا مثل حق العاج رخصا حصانا من أكف اللامسينا

فزاد على المرار أن مدح جماله فى عفته وملمسه ولونه . وقد شاركه فى نهوده ونتوئه.

وأما الخصر فقد كثر الحديث عن رقته ونحوله ، وشكا الشعراء معه من ثقل العبء الملقى عليه ، حيث يشد الازار ، يقول سيدنا كعب بن زهير :

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة لايشتكى قصر منها ولا طول

وقال المرار بن المنقذ

فهى هيفاء هضيم كشحها [1] نخمة حيث يشد المؤتزر

ورأوا جمال الأطراف فى طراوتها ونعومتها ، وأن يستر لحمها عظمها : فتكون جميلة إذا كانت ريا المعاصم ، ريا المخلخل ، وكان بنانها رخصا ، وخضيبا أحمر اللون كلون العنم ، قال المرقش الأكبر :

النشر [2] مسك ، والوجوه دنا نير وأطراف الأكف عنم

وقال امرؤ القيس :

هصرت بفودى رأسها فتمايلت على هضيم الكشح ريا المخلخل

وقال بشر بن أبى خازم

دار لبيضاء العوارض طفلة [3] مهضومة الكشحين ريا المعصم

وأما جمالها المجمل ، أو جاذبيتها العامة ، فكانت فى حسن الحديث . وطيب الرائحة ، وفى جمال المشية ، فى بطئها ودلالها ، أو فى خفتها ورشاقتها ، وفى بياض الجسم وإشراقه واعتدال القامة وتوسط الطول ، وقد أكثروا من القول فى ذلك : قال الاعشى يصف طيب رائحتها :

---

(١) رقيق خصرها

(٢) الرائحة

(٣) صغيرة السن

إذا يقوم يضوع(١) المسك أصورة(٢) والزنبق الورد من أردانها شمل

وقال سويد بن أبي كاهل يمدح جمال الحديث :

تسمع الحداث قولا حسنا لو أرادوا غيره لم يستمع

وقال النابغة فى فتنتها العامة ، وفى حسن حديثها وبهجة طلعتها :

لو أنها عرضت لأشمط راهب يرجو الإله صرورة متعبد
لرنا لبهجتها وحسن حديثها ،

وقال المنخل اليشكرى يشبه رشاقتها وخفة حركاتها :

فدفعتهـــا فتدافعت مشى القطاة إلى الغدير

وقد تقدم فى ثنايا الشواهد وصفها بالبياض والنعومة والرقة .

أما سحرها العام ، وتأثيرها الفاتن ، فقد تغنى به الشعراء ، وعبروا عن انفعالهم بهذا السحر والجمال فى مثل قول امرىء القيس :

إلى مثلها يرنو الحليم صبابة إذا ما اسبكرت بين درع ومجول
تثلث عما يات الرجال عن الصبا وليس فؤادى عن هواها بمنسل

حتى زهير بن أبى سلمى يقول :

وفيهن ملهى للطف ومنظر أنيق لعين الناظر المتوسم

ومن ذلك قول النابغة الذى سبق قريبا .

وهم يكادون يتفقون على هذا الجمال فى صوره السابقة ، إلا أنك ترى فى شعر بعضهم مايشير إلى التغزل فى الأجسام البدينة ، ويمدحها بالامتلاء واكتناز اللحم ، وخاصة فيما يتعلق بأهل الثراء والنعمة ، ولعلهم أرادوا مدح الغنى بمدح آثاره ، وأعظم الدلائل عليه تلك الأجساد التى تضيق بما عليها من لحوم وشحوم ، وتنوء بها إذا مشت ، وتتكىء عليها إذا جلست ، وتغالبها إذا رغبت فى القيام .

(١) يفوح : (٢) أصورة كأنه من أوعيته ، والاردان الاكمام : شمل : شامل

ولعل هذا الجمال الراكد الكسول ، فى بلاد يقل فيها الخير ، ويكثر النحول والضمور ، حتى فى الحيوان والنبات ، كان مستحسنا لطرافته وغرابته ، مع دلالته على الرخاء وسعة العيش . وقد يناسبه أن تكون المرأة مكسالا ، تنوم الضحى :

قال الأعشى :

يكاد يصرعها — لولا تشددها إذا تقوم إلى جاراتها — الكسل

ويقول كذلك :

« إذا تأتى يكاد الخصر ينخزل »

يعنى أنها إذا أرادت القيام كاد خصرها ينقطع من كثرة ماتحته من أثقال. ويقول المرار بن المنقذ ، إنها لا تمشى ولو قليلا إلا انقطعت أنفاسها أو كادت ، من فرط السمن :

وإذا تمشى إلى جاراتها لم تكد تبلغ حتى تنبهر

ويعلل ذلك بأنها قد « ربيت » وسمنت فى بيت عز ونعيم :

تطأ الخز ولا تكرمه وتطيل الذيل منه وتجر
ناعمتها أم صدق برة وأب بر بها ، غير حكر

لا يبخل عليها بشىء .

وقال النمر بن تولب يصف واحدة من هذا النوع : بأنها

« أناة ، عليها لؤلؤ وزبرجد » :

والأناة الثقيلة القيام من ثقل الأرداف . ويشير إلى سبب ذلك كما أشار المرار بن المنقذ فيقول النمر :

يربيها الترعيب والمحض خلفة ومسك وكافور ، ولبنى توكل

فهى قد ربيت على « الترعيب » وهو سنام الابل ، فاذا لم تأكل سناما شربت لبنا خالصا . وقد تأكل « اللبنى » وهو شجر له لبن حلو الطعم كالعسل: وحق لها بعد ذلك أن تكتنز لحما وشحما .

وإذا عرفنا أن شعراءهم كانوا ينطقون بلسانهم ، ويعبرون عن شعورهم ويمثلون حياتهم وأذواقهم ، تبين لنا أن مقاييس ذلك الجمال الذي وصفناه كانت عامة عندهم جميعا .

ونرى فيما تقدم أن عنايتهم كانت متجهة إلى جمال الجسد ، ولعل من أسباب ذلك أن شعراء هذا الجمال كانوا من الشبان ، أو أصحاب اللهو ، الذين كان يطيب لهم التفكير فى هذا النوع ، ويستهويهم إغراؤه وسحره . من أمثال امرىء القيس وطرفه والمتخل اليشكرى ، والمرقش والأعشى . ولسورة الشباب حكم . ولمجالس اللهو توجيه الى جمال الجسد أكثر من جمال النفس .

والجمال المعنوى . جمال النفس والأخلاق . والمهارة فى أعمال المنزل والاعجاب بالمقدرة عل تربية الأبناء . قد تكون كلها موضع إعجاب رجل الدين ، أو عالم الأخلاق ، أو المصلح الاجتماعى أوعالم التربية ،

ومع هذا فقد رأينا بعض الشعراء يعجب بجمال الأخلاق ، ومحبة الزوجة لزوجها ، وبعفتها ، وحسن عشرتها وجوارها . وقد قال النابغة

بيضاء كالشمس وافت يوم أسعدها ... لم تؤذ أهلا ولم تفحش على الجار

وقال الأعشى

ليست كمن يكره الجيران طلعتها ... ولا تراها لسر الجار تختتل

وقال عبدة بن الطبيب :

إذا غاب عنها البعل لم تفش سره ... وترضى إياب البعل حين يثوب

وقد فخر بعضهم على أولاده فقال :

فأول إحسانى إليكم تخيرى ... لماجدة الأعراق باد عفافها

ومع هذا فالحديث فى هذا الجمال المعنوى النسوى قليل . ولعل سبب ذلك أنه ليس مما يستهوى النفوس ويثير العاطفة الشعرية . ولعله مما يأبى شعراء ذلك العصر أن يخوضوا فيه كثيرا ، أو لعله قد قيل شىء من ذلك ولكن الرواة تخيروا مايستهوى القلوب ويسير فى الآفاق ، فرأوا هذا

الغزل الحسى أجدر بالرواية فضوا به و نقلوه .

وأختم هذا برأى القرآن فى جمال المرأة . فقد مدحها بالناحيتين معا ، وأعد للمتقين « كواعب أترابا » « كأمثال اللؤلؤ المكنون » « أبكارا عربا أترابا » ووصف الجنات بقوله سبحانه « فيهن خيرات حسان » « حور مقصورات فى الخيام » : وقال وعدا للمؤمنين « ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون »